الشّعر في رواية الدقلة في عراجينها

بقلم: سُوف عبيد

بين الشّعر و ـ الرّواية ـ من رَوى يروي ـ تلازمٌ منـذ أقـدم العصور عندما كان الرّاوي ينقل القصائد من حيّ إلـى حيّ ومن قبيلة إلى قبيلة ومن سـوق إلـى سـوق بـل إنّ الشـاعر لا يشـتدّ عوده إلاّ بعد أن يكون راوية لغيره من الشعراء.

إنّ الرّواية هي التي نقلت إلينا أشعار الجاهليّين وهي التي أبلغتنـا كـذلك أخبـارهم وأيّـامهم وأمثـالهم والرّوايـة هـي الـتي تحمّلت إيصال القرآن والحـديث والسّـيرة جيلا بعـد جيـل ومـن عصر إلى عصر إلى اليوم وغدا ستنقلها الذاكرة من لسان إلـى أذن.

وإذا كانت الرّواية بالنسبة للثقافة العربية القديمة قدمثلت الوسـيلة الأساسـيّة الأولـى فـي اِسـتيعاب ونقـل الأدب والـدّين والتاريـخ والحضـارة عمومـا، فإنّهـا غـدت منـذ مطلـع القـرن العشرين تمثل أيضا جنسا مستحدثا في الكتابة السّـردية وذلـك عندما أصبح القلم سيّد الورقة لا الذاكرة بحـذافيرها فيخـطّ مـا تشاهده العين بتمعّن وخيال وتفنّن كما يتجلّى في رواية الدقلـة في عراجينها للبشر خريّف التي نلاحظ فـي غضـون متنهـا أنّهـا محمّلةٌ بالشعر في عديد من أغراضه وفي كثير مـن أنـواعه ولا عجب في ذلك، حيث أنّ الرّواية تعبّـر عـن بيئـة ثقافيّـة عميقـة التجذّر فـي الأدب وفـي الفقـه بالإضـافة إلـى ولعهـا المتـوارث بالفصاحة والبيان ألا وهي بيئة الجريد من الجنوب الغربي للبلاد التونسية. فقد: "شاء أحد الرحالين أن يرى مقدار حفظ القرآن في هذا البلد فخرج بكرة ومعه لوح وتلا على أوّل من مرّ به آيةً رسالة أن يسوق ما بعدها ففعل وقال له: إنّي معجـول فاسـأل غيري. قال الرّاوي: فجلس الرجل على جانب الطّريق فما مِـنْ أحدٍ مرَّ كبيرًا أم صغيرًا رفيعًا أم وضيعًا إلاّ وساق له الآيـة حتّـى أتمّ لوحه"(ص 87).

وفـي مسـجد سـيدي عبـد العـالي يشـرح الشـيخ الصّـادق الأجرومية وفي مسجد سيدي أحمد ميعادٌ يقرئ الشيخ بن حمد المعلقـات السـبع، ويُطـالع سـي الطيـب الأزهـاري فـي علـوّه

رسائل إخوان الصفا وتحيط به جمهرة من الشبّان يدّعون التصوّف ولا يُصرفهم عن بحث اللاّهوت والنّاسوت شيءٌ وينكرون المادة ولا يعترفون إلاّ بالجانب الرّوحاني من الأشياء فأُطلق عليهم جماعة الرّوحانيات ولا يُقرئ الشيخ أحمد بالعيفة كتابًا بعينه وإنّما يجلس للنّاس في سقيفة الجماعة فيسألونه ويُجيب ويتجادلون في أصول الكلم واشتقاقه ومعانيه واستعمالاته وشواهد عليه من القرآن والحديث والشعر فيدعو بالكتب والمعاجم ويبحث ويحقق (ص 90).

إنّ شخصيّات تعيش في هذا الحشد الهائل من التعبيرات اللغوية على تنوّع مدلولاتها وإختلافها ليس عجبا أن تَرشَح في كلامها بالشعر لذلك جاءت موشّحة بكثير من سجلاته وحسُبك بأنّ الشباب في الجريد كثيرا ما يعمد إلى المساجلات الشعرية وهي أن ينشد أحدهم بيتا من الشعر فيأتيه مناظرهُ ببيت يبتدئ بالحرف الذي ينتهي به رويُّ البيت الأوّل ولا يعاد بيتٌ ذُكر.(ص 99)

بل إنّ النادر من الشعر يوجد في هذه الرّواية كالقافية التي لا تنتهي بحرف (ص 99) فعندما أخذ ــ العربي ــ وهو شخصية في الرواية ــ كرّاسًا وإختلى بالشيخ أحمد العيفة ليزوّده بأبيات لكلّ حروف المعجم فأجابه لذلك ثمّ أتحفه ببيت ليقهر أترابه وهو بيت لأبي نوّاس:

مررتُ بعطار يدق قرنفلا
ومسكًا وكافورًا فقلت له (...)
(إستنشاق الهواء)
فقال لي العطار رُدّ قرنفلي
ومسكي وكافوري فقلت له (..)
(إستنثار الهواء)

وتضمّنت الرواية في سياق آخر بعض أخبار العشاق العرب القدامى كما رواها الأصمعي في كتب التراث كالذي برّح به الحبّ فكتب على حائط أو على حجر:

ألا أيّها العشّاق بالله خبّروا
إذا اشتدّ عشق بالفتن كيف يصنع

ومن الغد وجد تحتها بيتًا من الشعر فيه تفهّم وتجمّل ونُصح:

يُداري هواه ثمّ يكتم سرّه
ويصبر في كلّ الأمور ويخشع

وتمادت المراسلة في لوعـة وشـكوى مـن جهـة ومعالجـة ونصح من جهة أخرى ولمّا لم يجد لصـاحبه المجهـول دواءً نفـذ فيه حكم الله بقوله:

إذا لم يجد صبرًا لكتمان سرّه
فليس له عندي سوى الموتِ ينفع

فما كان من العاشق إلاّ أن كتب:

سمعنا أطلعنا ثمّ متنا فبلّغوا
سلامي إلى من كان للوصل يمنع

ووقع ميّتا (ص 130)

إذا كان هذا الخبر بما فيه من شعر يعتبر رواية قديمة فـي روايـة أدبيـة حديثـة فـإنّه يـدلّ علـى المرجـع الـذهني لبعـض شخصيات ـ الدقلة في عراجينها ـ التي ولئن كانت عاشـت فـي النصف الأوّل من القرن العشـرين إلاّ أنّهـا تحيـا بنفسية العربي القديم بل إنّ البشير خريّف يعود بتلك الذهنيـة فـي الجريد إلى العصر القديم السّاحق عنـدما كـانت الصـحراء الإفريقيّـة غابـات وذلك حين يصف مرح الفتيات عند السواقي قائلا:

هناك جنّة الأطفال: الماء والرّمل والحمير والنخـل، وجـدوا أبناء عمومتهم وجيرانهم وصبيةً مـن العـروش الأخـرى وعجـائز يغسلن الصّوف وبناتٍ يلعبـن بالمـاء مشـمّرات ثيـابهنّ المبلّلـة والصغيرات في بذلة حوّاء ورؤوس النخل تدوّي بالحـك وصـراخ من حلّقت به الدرجيحة فـوق الأشـجار. وقفـت إحـدى الفتيـات على ربوة وصاحت بالواد كأنذها جاهليّة تخاطب إلاهًا:

-فرعون يا فرعون طوّل شعري وكبّر قعري

وارتمت في الماء وتبعتها رفيقاتها يطلقن من وراء القرون النداء الفرعوني ثمّ يغُصْنَ في الماء.

ويعلّق البشير خريّف قائلا: وتلك مـن العـادات الـتي لبثـت حيّة من القـدم إلـى يومنـا هـذا وهـي لا تقـلّ فائـدة لـو تـدبّرها المؤرّخون عن آثار الحجارة المنقوشة لعلّهم يجدون بينها وبيـن نيروز مصر علاقة أيّام كافة الصحراء معشوشبة يشقها النّيل أو النّيجر ويجوبها الفيل ويجوس في مروجها الأسد (ص 24)

ومن الشخصيات الأخرى التي تتفاعل مع الشعر القديم، بل وتُضيف إليه ما يتناسب وما يجول في وجدانها من الأحاسيس كالذي يستشهد ببيت ابن الفارض:

قِفْ بالدّيار وحيِّ الأربعَ الدّروسَا
ونادها فعساها أن تجيب عسَى

فكان يمرّ على الزّقاق ويولّي وجهه ناحية الحوش وينشد:

قف بالديار وحيّ الأربع الدُّرُسَا
ونادها...
وينادي في سرّه "العطراء" ويتمّ البيت (ص 131)

إنّ الشعر الوارد في رواية الدقلة في عراجينها يشمل بالإضافة إلى الشعر القديم الشعر الغنائي باللسان الدّارج وخاصة منه الذي كان سائدًا في الفترة الزمنيّة التي تدور فيها أحداث الرّواية خلال النّصف الأوّل من هذا القرن بل ويسجّل حتّى أغنية لمحمد عبد الوهاب التي ورد ذكرها مرّتين (ص 435) و(ص 447) وهي:

مشيت أنوح والليل ساحرني

وإذا كان الشعر الفصيح الوارد في الرّواية يمثّل المرجع الثقافي العربي الأصيل الدّال على تجذّر البشير خريّف في التراث فإنّ الشعر الشعبي المبثوث فيها والوارد على لسان شخصيّاتها يدلّ على وفاء الرّواية للواقع المحلّي ولأدبه الشفويّ الذي يعتبر لونًا من ألوان فنّ القول الذي تثبته هذه الرّواية ذات السجلاّت اللغويّة المتعدّدة والمناسبة لمقام الخطاب حيث اِستعملت فيها الفصاحة والبلاغة بحسب ما تقتضيه الحالة والفكرة كأنّ البشير خريّف أراد فيها أن يختبر اللغة بجميع مستوياتها المعجمية والبيانية والفنّية حيث كان الشعر أحد أركانها الواضحة.

وبعد:

لئن كان الشعر حاضرًا بصفة واضحة خلال هذه الرواية بأغلب أنواعه من وصف وغزل وتصوّف وهجاء وموشّح وغير ذلك من فصيح ودارج ورد على لسان الشخصيات في سياق حديثها أو ينثال في سياق سرد الرواية فإنّ النثر كذلك قد

يرقى لدى البشير خريّف في بعض الفقرات ليصل إلى حدود التصوير الفنّي فيلامس تخوم الشعر إيحاءً وإيقاعًا وحسًّا مثل قوله في النخلة:

لا فرعٌ لها ولا غصنٌ تنطلق من الأرض مستقيمةً جبّارةً فتنفتح في السّماء والنّورُ ويتفرّع جريدها من القلب منقوشا متناظرًا أخضر باسقًا في دائرة كأنّه فوّارة خضراء، يلين سعفه ويرقُّ حتى ليكاد أن يكون في نعومة الرّيشة، ويشتدُّ عند اِقترابه من الثمرة ويتصلّب حتى يصير شوكا أسودَ الذبابة مسدّدًا، يحمي الرُّطب من الأيدي، دمُها رحيق عذبٌ وقلبها لذيذٌ شذيٌّ، تزهُو وتحلم، تُسقي وتُسكر، تلدُ وتجنُّ وتطلب الحبّ في الرّبيع.

وما قيامها وخُيَلاؤُها إلاّ لأنّها تحمل الغناء في فؤادها، تُطوّح بغلتها الجنوب والشمال وتصهرها الشمس فتُذهبّها وتُنضجها فتمتلئ لحمًا وتثقل العراجين وتمتدّ الشماريخ بتمر نُورانيّ كأصابعَ تشهد أن لا إله إلاّ الله.(ص 15)

فإذا كان الشّعر العربيّ قد وصلنا عن طريق الرُّواة والرّواية وإذا كانت رواية الدقلة في عراجينها محمّلة بعديد القصائد القديمة وإذا كانت تلامس في كثير من فقراتها عوالم الإيحاء وترفل في ضرب من الإيقاع فإن ذلك يجعلها تمثّل حلقة الوصل بين المعلّقة القديمة والرواية المعاصرة وصولا إلى الإبداع الشامل بأجناس الكتابة جميعًا.